دور السياق في كشف الدلالات الرمزية
في مقدمة البردة لكعب بن زهير

The role of context in revealing symbolic connotations In the introduction of Kaab Ben Zahir's masterpiece poem (Burdah)

د. رجاء يوسف محمد شاهين

قسم: اللغة العربية

جامعة المجمعة – المملكة العربية السعودية

الملخص

حاولت الدراسة، تقديم قراءة نقدية تحليلية لمقدمة قصيدة " البردة " لكعب بن زهير، وفق رؤية استهدفت دور السياق في كشف الدلالات الرمزية، بالارتكاز على السياق الخارجي، والداخلي، سيما قلة الدراسات التي استهدفت المقدمة بدراسة مستقلة، ما دفعني للبحث بالنفوذ، إلى باطن القصيدة، باتباع المنهج السياقي للنظر في دور السياق وإمكاناته في كشف رمزية المقدمة وأسباب اختيار هذه المقدمة الرمزية، ومقاصد الشاعر في اختيار " سعاد" دون غيرها، في قصيدة ستلقى أمام النبي، ولها هدف، وهو الاعتذار، مما يتطلب مراعاة المقام واستجلاب الاستعطاف والرضى، بالسير على درب الممدوح لا إغضابه، فنظرت فيما إذا كان ما قدمه كعب مما يحسن من شاعر مجيد مثله، فتوصل البحث إلى النتائج التالية:

١/ لعب السياق الخارجي دورًا بارزًا في كشف رمزية المقدمة ونفي أن تكون غزلية.

٢/ كشف سياق الموقف، ترابط ومنطقية التسلسل الدلالي للأبيات.

٣/ كان لسياق الحال دورا في بيان المقصود " بسعاد "

٤/ بين السياق اللغوي مبررات الشاعر في اختيار اسم " سعاد " بما يتميز به من ديناميكية تجعله قابلًا للتأويل وفق سياق الحال.

الكلمات المفتاحية: الدلالات الرمزية في مقدمة البردة لكعب بن زهير، السياق والدلالات الرمزية سياق مقدمة بردة كعب بن زهير.

ABSTRACT

The study attempted a critical reading of Kaab Ben Zahir's poem " Burdah," according to a vision aimed at the role of context in revealing symbolic connotations,. The key to accessing this research was the deconstruction of the talisman's different views surrounded the truth about "Suaad," Despite many previous studies on ‘Burdah’, few independent studies on it. What motivates the researcher to search deeply into its innermost part, following the contextual approach, considering the role of the context and its potential in exploring the introduction's symbolism The reasons for choosing this symbolism, the poet's intention in Saad than other names, are to be introduced in front of the prophet Mohammed. Its apology objective, requires to consider the status of the person to be praised and how to gain sympathy and satisfaction. And to be with the praised person, not against him. The researcher looked for what extent was presented by ‘Kaab’ considered as good work from glorious poet, to choose that topic, and I got the following results:

1- Context plays a prominent role in exposing the symbolism of the introduction and denying it is flirtatious

2- Revealing the context of the situation, the logical semantic sequence of the verses

3- The context of the situation had a role in clarifying the meaning of “Saad”

4- The context shows the poet’s justifications for choosing the name “Saad” due to its dynamic character that makes it subject to interpretation according to the context of the situation

المقدمة

تشكل مقدمات القصيدة جزءا أساسيا في بنائها، كونها مدخلًا لموضوع القصيدة ما جعلها تحظى باهتمام الدارسين والنقاد، "وشرحها كثيرون، منهم ابن دريد والتبريزي، وقد طبعت قصيدة البردة، مرارا بمصر وأوروبا وهناك نسخ كثيرة من الأصل والشروح في مكاتب برلين ولندن والأسكوريال ومصر وغيرها "(١)، فاهتم بعضهم بشرحها وتحليلها، بينما وقف البعض على أنواعها، كونها جزءا أساسًا في القصيدة الجاهلية. وقد أسفرت تلك الجهود عن رؤى وقواعد نقدية، كحسن الاستهلال . وحسن التخلص، ذلك أن المقدمات كانت عادة تختلف في موضوعها عن موضوع القصيدة، وقد تفنن الشعراء فيها كل حسب قدراته الشاعرية، فمنهم من بدأ بالأطلال ومنهم من بدأ بوصف الخمر، ومنهم من بدأ بالغزل، ولم يخالف كعب بن زهير هذه المنهجية المتبعة في قصيدته البردة، فمن يطلع على القصيدة يجد مقدمة حافلة تحمل ملمحا غزليا وجماليا وآخر مناقضا لهذا الجمال الخلقي، وهو عدم الوفاء بالوعد والعهد، فكان ذلك مما استوقفني وحرك حدثي سيما أن الشاعر يستهدف مدح النبي الكريم صاحب الرسالة الإيمانية فوقر في نفسي سؤال وهو لمَ بدأ الشاعر بوصف امرأة متغزلا، ولم يبدأ بوصف الناقة أو الطلل؟، فيخبر مثلا، أن حياته الأولى بليت كما الطلل البالي، ليكون بابٍ للاعتذار والتوبة. ولمَ يشين محبوبته في صفات مقدسة عند أهل الجاهلية؟! " الوفاء بالوعد والعهد " فرأيت حتمية البحث في سياق القصيدة اللغوي وغير اللغوي، باتباع المنهج السياقي والاستنباطي؛ للوقوف على مدى قدرة السياق على كشف تلك الدلالات الرمزية، منطلقة من أسئلة شكلت مشكلة البحث. وبالطبع لم تكن هذه الدراسة هي الأولى في هذا الصدد فقد استوقف اسم سعاد كثيرًا من الباحثين والدارسين وتضاربت حولها الرؤى، فعلى سبيل المثال وقفت دراسة المحاسنة على

(١) زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، (**مصر، دار الهلال، د.ت**)، ج١ ص١٦٢

التناقض في وصف المحبوبة مستدلا؛ بل نافيا به غزلية المقدمة[١] وهذا مما يعد دليلا على عبقرية الشاعر حيث منح تعبيره حيويّة وديناميكية على صعيد الدلالة والمضمون ما جعل الشراح والدارسين إلى يومنا هذا يقفون على منصتها بالدراسة والبحث كُلُ بالطريقة التي تنسجم مع أفكاره ورؤاه، وأن تفوز قبل ذلك ببردة النبي الكريم. إذ ليس من المعقول أن يقدم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بردته لمدح عادي، وقد مُدِح من الكثيرين، سيما أن لرسول الله الكريم، رؤية نقدية برزت من خلال هذه القصيدة العصماء، عندما عدل لكعب قوله

"ان الرسول لنور يستضاء به * مهند من سيوف الهند مسلول "

فقال له معدلًا " بل من سيوف الله " فأبدل كلمة بكلمة.[٢]

مشكلة البحث

انطلقت مشكلة البحث من سؤال محوري يقف على دور السياق في الكشف عن الدلالات الرمزية في مقدمة البردة

أسئلة البحث

١/ ما دور السياق في بيان رؤية الشاعر في مقدمة تحمل سمة غزلية سيما أنه قدمها أمام الرسول الكريم وفازت ببردته،عليه الصلاة والسلام

٢/ ما دلالة السياق في الكشف عن هوية مقدمة قصيدة كعب

٣/ ما دور السياق في الاستدلال على حقيقة سعاد؟

٤/ ما دور السياق في كشف منطقية التسلسل الدلالي للأبيات؟

(١) المحاسنة، علي أرشيد " الدكتور جاسر أبو صفية وقصيدة: بانت سعاد: دراسة نقدية"، (**مكة المكرمة، مجلة جامعة أم القرى للعلوم الشريعة واللغة العربية، مج ١٧، ٢٠٠٥م**)، ع ٣٣، ص٣٣

(٢) المرزباني، أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى، معجم الشعراء، (القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م)، ص ٢٣١

أهداف البحث

١/ الكشف عن دور السياق في بيان رؤية الشاعر في مقدمة تحمل سمة غزلية سيما أنه قدمها أمام الرسول الكريم وفازت ببردته، عليه الصلاة والسلام.

٢/ كشف دور السياق في الاستدلال على رمزية مقدمة البردة.

٣/ الاستدلال على حقيقة سعاد في مقدمة البردة

٤/ توضيح دور السياق في كشف منطقية التسلسل الدلالي للأبيات

أهمية البحث

رؤية وقراءة جديدة في بردة كعب، سيما قلة الدراسات المختصة بالمقدمة فقط

منهج البحث

المنهج السياقي والاستنباطي

حدود البحث:

دراسة مقدمة البردة

مصطلحات البحث

السياق، وهو نوعان

السياق اللغوي، هو حصيلة استعمال الكلمات داخل نظام الجملة، مما يكسبها معنى خاصاً محدداً. فالمعنى في السياق، بخلاف المعنى الذي يقدمه المعجم.

السياق غير اللغوي: يدل هذا السياق على العلاقات الزمانية والمكانية أو المقام الذي يجري فيه الكلام

المبحث الأول

التعريف بالشاعر وأسباب قصيدته

المبحث الثاني

سياق مقدمة القصيدة ودلالتها الرمزية

المبحث الثالث

السياق ودلالات الصورة الفنية

الدراسات السابقة

كشف هذا البحث . على حد علمي . قلة الدراسات السابقة التي تناولت مقدمة البردة بدراسة مفصلة بعيدا عن تناولها ضمن القصيدة، فقد اهتم العديد من الباحثين والدارسين بقصيدة البردة كاملة وكانت المقدمة جزءا من الدراسة عدا دراسة، (محجوب، مؤمن أحمد) بعنوان (المقدمة الغزلية لـ بردة كعب بن زهير بين الأصل العربي وثلاث ترجمات إنجليزية: دراسة مقارنة) وهي لا شك بعيدة عن محور دراستنا كما يبدو من العنوان؛ لذا اكتفيت بالدراسات التي تناولت البردة كاملة على أن نقف على تحليل الدراسة للمقدمة والنتائج التي خلصت لها

دراسة الأولى

دراسة د. سمر الديوب بعنوان (قراءة في لامية كعب بن زهير " مجلة مجمع اللغة العربية –دمشق العدد ٨٤ ج٤ ص ١٠١٥٩)

هدفت الدراسة التحليلية إلى الانطلاق من النص للكشف عن وحالة الشاعر النفسية ورؤيته في اختيار مقدمة غزلية لقصيدته، وفسرت اختيار الشاعر للمقدمة الغزلية دون الطلل بأن الشاعر كان مغرما بالجاهلية، وكنى عن شعوره تجاهها من خلال صورة امرأة فارقته، فلن يستطيع أن يكني عن شعوره من خلال صورة طلل اندثر. ولما كان للحياة الجاهلية قيمة عالية في نفسه، لم يشأ أن يودعها كما يودع طللاً درس ومات لم يرد أن يرثي الجاهلية، إنما أراد أن يكني عن شعوره الخاص تجاهها"، اتفقت الدراسة الحالية مع السابقة في دلالة "سعاد " والحياة، بينما اختلفت معها في التحليل فينما ركزت الدراسة السابقة على كشف حقيقة سعاد ركزت الحالية على دور السياق وفاعليته في تحليل النصوص للوصول الى قراءة صحيحة للنص عبر دلالات النص في السياق، وهوما لم تستهدفه الدراسة السابقة، كما اختلفت في تفسير حقيقة سعاد بالحياة الجاهلية حيث ترى الدراسة الحالية أن الشاعر طالما أراد الاعتذار فهو لن يعتذر بأن السعادة فارقته بفراق حياة الجاهلية، كما لن يعتذر عن حياة وجودية

عاشها كغيره ضمن الماضي؛ إذ كانت الجاهلية نمط عيش عادي قبل الرسالة المحمدية، إنما سيعتذر بشيء خاص وشخصي، وهو لهوه وانشغاله بالدنيا ما دفعه لتبرير ذلك بتقديم إدراكه وقناعته بالدين، الدين القويم وهو ما يقربه للعفو، وهذا ما برر للدراسة الحالية، واختلفت معها أيضا في الوقوف على السياق للاستدلال على مقصد الشاعر ب " سعاد " الغرورة الملهية، التي أُستجلب وأُستعطف بوصفها المتلقي. كما اختلفت الدراسة الحالية مع السابقة أيضا في هوية المقدمة، فبينما ترى الدراسة السابقة أن الشاعر قدم قصيدته بالغزل ثم كنى بالأنثى عن حياة الجاهلية، ترى الدراسة الحالية، أن المقدمة رمزية بكامل دلالاتها الوصفية..

الدراسة الثانية

(رمزية الذات والحياة في بردة كعب بن زهير) محمد محمود ياسر الحوراني، الجامعة المستنصرية – كلية الآداب / قسم اللغة العربية)

عالج هذا البحث بنية المقاصد في مقاطع القصيدة، ثم شروحها، كما تناول بنية القصيدة وعقد الباحث تطوافا وافيا لأغلب الدراسات المفسرة والرؤي في مقصد الشاعر" بسعاد " ليخلص الى أنها ترمز الى ثنائية (الموت والحياة) ورصد اتساع هذا المفهوم الرمزي ودلالته عبر مقاطع القصيدة.

اتفقت الدراسة مع الدراسة الحالية في رمزية اسم "سعاد " وبما قصد به في جانب واحد وهو السعادة، والحياة، بينما اختلفت معها في مدلول هذه الرمزية (ثنائية الموت والحياة). كما عللت الدراسة الحالية لمدلول الاسم بالوقوف على السياق مستهدفة دور السياق في الدلالة على رمزية المقدمة وهو ما لم تقف عليه الدراسة السابقة. كما لم تكشف الدراسة عن المنهج المتبع بينما اتبعت الدراسة الحالية المنهج السياقي.

المبحث الأول

التعريف بالشاعر وأسباب قصيدته

أولا: التعريف بالشاعر

كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، أبو المضرّب: من أهل نجد، كان ممن اشتهر في الجاهلية، ولما ظهر الإسلام هجا النبي -صلى الله عليه وسلم- وأقام يشبّب بنساء المسلمين، فأهدر النبيّ دمه، فجاءه "كعب " متلثما، وقد أسلم، وأنشده لاميته المشهورة التي مطلعها: " بانت سعاد فقلبي اليوم متبول " فعفا عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- وخلع عليه بردته. وهو من أعرق الناس في الشعر، فهو ابن زهير بن أبي سلمى، وأخوه بجير، وابنه عقبة وحفيده العوّام، جميعهم شعراء. وقد كثر مخمّسو لاميته ومشطّروها ومعارضوها وشرّاحها، وترجمت إلى الإيطالية،

وعني بها المستشرق رينيه باسيه فنشرها مترجمة إلى الفرنسية، ومشروحة شرحا جيدا، صدّره بترجمة كعب(١).

وهو من المخضرمين ومن فحول الشعراء . قال خلف الأحمر – الراوية والنّاقد المعروف – "لولا أبيات لزهير أكبرها الناس، لقلت إن كعباً أشعر منه "(٢)

ثانيا: مناسبة القصيدة

وحدثوا أن كعب بن زهير بن أبي سلمى المزنيّ، كتب إلى أخيه بجير، وكان بالمدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم، سابقاً بإسلامه ورشده(٣)

(١) الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام،(دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢م)، ص٢٢٦.

(٢) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم،الشِّعر والشعراء،(القاهرة، دار المعارف،، ت، أحمد محمد شاكر، ١٩٨٢م)، ج١، ص٢٠

(٣) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، الأمالي،(**بيروت، دار الغرب الإسلامي ط ١٩٩٥م**) ص٨٣

لا أَبلِغا عَنَي بُجَيراً رِسالَـةً فَهَل لَكَ فيما قُلتَ بِالخَيفِ هَل لَكا
شَرِبتَ مَعَ المَأمونِ كَأساً رَوِيَّةً فأنهلك المَأَمـونُ مِـنها وَعَلَّكـا
وَخالَفَت أَسبابَ الهُدى وَتَبِعتَهُ فَإِنهَـلَكَ المَأَمـونُ مِـنـهـا وَعَلَّكـا
عَلى خُلُقٍ لَم تُلفِ أُمّاً وَلا أَباً عَلَيهِ وَلَـم تُدرِك عَـلَـيـه أَخـاً لَكـا

وكان كعب قد نال من رسول الله صلى الله عليه وسلّم في بعض شعره فأهدر الرسول الكريم دمه "من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله " [1] فكتب بذلك بجير إلى أخيه يخبره أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لا يأتيه أحد يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله – إلا قبِل ذلك فإذا جاءك كتابي هذا فأَسْلِم

وأجابه بقصيدة

فَمَن مبلغٌ كَعباً فهَل لَكَ في التي تلومُ عليهـا باطِـلاً وَهـي أحزَمُ
إلى اللهِ لا العُزى ولا اللاتِ وحدَهُ فتنجُـو إذا كـان النجاءُ وتسلَمُ
لـدى يوم لا ينجُو وليسَ بِمُفلِتٍ منَ النارِ إلا طاهرُ القلب مُسلِمُ
فَدِينُ زُهيرٍ وَهـوَ لا شيءَ دينُـهُ ودينُ أبي سُلَمى عَلَيَّ مُـحَـرَّمُ

وأَقْبِلْ، فأسلم كعب، وقال القصيدة التي يمدح فيها رسول الله –صلى الله عليه وسلم[2].

وهي قصيدته الشهيرة "بانت سعاد" وسميت لاحقا بالبردة، لأن الرسول –صلى الله عليه وسلم– خلع بردته من فوق ظهره الشريف وأهداها لكعب إعجابا، وذكر، أن البردة النبويّة بيعت في أيام المنصور الخليفة العباسي بأربعين ألف درهم، وبقيت في خزائن بني العباس إلى أن وصل المغول [3]

(١) ثعلب، أبي عباس أحمد بن يحيى، مجالس ثعلب، عبد السلام هارون، (**مصر، دار المعارف، ١٩٦٠م**)،ص٣٤٠.
(٢) النيسابوري، الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد، المستدرك على الصحيحين،(**بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٠م**) ص٦٧٠.
(٣) البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ١٩٦٩م)

المبحث الثاني

سياق مقدمة القصيدة ودلالتها الرمزية

درج عند شعراء الجاهلية أن يبدؤوا قصائدهم بمقدمات شكلت محورًا مهما في بيان مهارة الشاعر وقدرته في حسن الاستهلال، ثم حسن التخلص من المقدمة دخولا الى الغرض. لم يخالف كعب تلك العادة التي تنم عن وعي العرب بالأساليب المنهجية، التي تجعل المقدمة ركنا أصيلًا في القصيدة ما دفع النقاد أن يهتموا بها ويضعوا لها شروطًا، يقول حازم القرطاجني: "وتحسين الاستهلالات والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة؛ إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها.(١)

يقول ابن رشيق:

"وبعد، فإن الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداءَ شعره؛ فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدلُّ على ما عنده من أول وهله"(٢)،

وهذا ما نراه في مقدمة كعب من خلال السياق، حيث عكس حاله، فرصد تفاصيلها بما يدعم موقفه ويؤهله للعفو من ناحية، وبما يتوافق مع المقام والجو العام للقصيدة من ناحية أخرى، فتسير على وحدة عضوية متسقة مع الهدف. ولما كان الغرض من قصيدة (البردة) مدح النبي الكريم حاول كعب، وهو شاعر شهد له بجودة الشعر، أن يجانس بين فحوى الرسالة المحمدية وبين مقدمته لتوافق مقتضى الحال، وهو أمر أشار إليه النقاد، كقول ابن الأثير" وإنما خُصت الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده، توفرت الدواعي لسماعه" (٣)، وقد أبدع الشاعر عندما ألبس المقدمة ثوبا يليق بتقديمه أمام

(١) الغرب الإسلامي، ط١٩٨٦،٣م)، ص٣١٤ بيروت، دار(القرطاجني، أبو الحسن حازم، مناهج البلغاء وسراج الأدباء،

(٢) القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، (بيروت، دار الجيل، ١٩٨١م) ج١، ص٢١٧

(٣) ابن الأثير، أبي الفتح ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (مصر، مطبعة مصفى الحلبي، ١٩٣٩م.

الرسول الكريم حيث أحدث تحولا في مفهوم الغزل من وصف الأنثى المرأة الى وصف الدنيا كمؤنث، مما يعد بابا للالتزام بما سار عليه القدماء في النظم وخروجا في ذات الوقت، عن المفهوم العام للغزل الى الرمز به حتى تتوافق مع المقام، إذ لا حاجة للرسول الكريم في وصف الأنثى، وهو صاحب رسالة تدعو الناس الى عدم الانشغال بالدنيا والعمل من أجل الآخرة، وهو المقام الذي انطلقت منه مقدمة كعب حيث جسدت المقدمة حالة الشاعر النفسية بعد أن بانت عنه السعادة الحقيقة بالانشغال بمحاسن الدنيا وأصبح أمله في عودة السعادة معقود بعفو النبي عنه. ورغم رمزية المقدمة إلا أن رؤية النبي النقدية كانت حاضرة بركنها اللغوي المكين الذي ساعده على إدراك المعاني والدلالات الرمزية، عبر السياق؛ حيث بدا التناقض في الغزل بذكر صفات تتوافق مع أنثى أخرى وهي "الدنيا " تكشف مقاصد الشاعر بوضوح، ما جعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يخلع عليه بردته في دلالة رمزية أخرى تعني العفو والصفح والاعجاب معا. فلما كان معنى سعاد هو السَّعْد، واليُمْن وهو نقيض النَّحْس، والشقاوة وظف الشاعر هذه الدلالات توظيفا بلاغيًا "التورية " فكانت سعاد هي المحبوبة في المعنى القريب وهي "الدنيا " في المعنى البعيد ثم حمل السياق مهمة توضيح الدلالات وكشف المقاصد، فسعاد، هي "السعد " في الدنيا والسعد في الآخرة، فحمل اسم "سعاد " دلالات رمزية جعلها تلعب دورها في تقنية تكتيكية عالية كشفها السياق وحدد مواضعها فهي "الدنيا " بجمالها الفاتن اللاهي وتناقضها المزعج الذي يقربك من الأمل ويلهيك؛ لكنه لا يبلغك المأمول ويملكك العهد ولا ينجزه و"سعاد " أيضا هي السعد الحقيقي المعقود بعفو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي يستحق أن يكابد المشاق ليصل إليه رغم بعد الشقة هكذا وبقدرة شاعرية فائقة، مازج الشاعر بين المفهوم السطحي (العام) للغزل وبين الحقيقة الخافية بين طيات المعاني والدلالات، محملا السياق مهمة الكشف عن المراد فسعاد التي بانت عنه، هي بائنة في كلا الحالتين الأولى والثانية ولن يبلغها الا بوقوفه أمام النبي الكريم وبيان حاله باختيار ذكي لألفاظ

ذات دلالات عميقة، فأبدع في اختيار لفظة " متبول، " . التي تعني الهيام . ولفظة "مكبل" ليصنع بها سياقا يخدم دلالة النص على عمق الانشغال، فكأنه مكبلُ مقيد بحبها مع غياب الوعي، أو الادراك وعندما نقف على كلمة "بانت سعاد " التي استهل بها مقدمته ثم نربطها بقوله " لا يبلغها " ثم نقف على وصف الناقة أو الوسيلة " إلّا العِتاقُ النَجيباتُ المراسيلُ" تجد أن السياق يخدم دلالة واحدة وهي أن سعاد سيتم الوصول إليها عبر ناقة لم توصله في الحقيقة إلا لرسول الله . صلى الله عليه وسلم . وهو ما يدعم دور السياق في كشف الرمز وبيان المقصد فالرسول الكريم هو الذي بلقائه وعفوه تكون السعادة والسعد، وهكذا تسير قصيدة البردة في وحدة متكاملة الى موضوعها وهو الاعتذار، وقد شكل السياق فيها رابطا قويا بين أجزاء القصيدة مما صنع وحدة عضوية، وهذه قدرة شاعرية هائلة أشار اليها خلف الأحمر – الراوية والنّاقد المعروف " لولا أبيات لزهير أكبرها الناس، لقلت إن كعباً أشعر منه "[١] . وعرف عن كعب أنه من مدرسة زهير بن أبى سلمى التي عرف عنها الاعتناء بالشعر وتحسينه، وظهر ذلك جليا في هذه القصيدة، حيث شكلت مقدمتها نموذجا لحسن التقديم والابتداء وحسن التخلص والختام، ما وافق شروط النقاد، فقد أورد صاحب الصناعتين في كتابه " أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات؛ فإنهن دلائل البيان " (العسكري، ١٩٥٢م، ص٣٣١) وقد أحسن كعب عندما أبرز حسن الصناعة بحسن المزج بين الدال والمدلول، في سياق استنطق المعنى بما يوافق المقام. فكان غزله بمحاسن الدنيا الملهية حجة لقبول عذره.

(١) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (الشِّعر والشعراء، ج١،(مصر،،دار المعارف،١٩٨٢م) ص١٣٩.

المبحث الثالث

السياق ودلالات الصورة الفنية

بدأ الشاعر قصيدته بلفظة تدل على معنين، أحدهما الظهور والآخر على البون أو الفراق، وذلك في قوله: " بانت سعاد " وبانت، يبين "ظهرت" ولم يستبن المعنى الا بالسياق حيث يذكر الشاعر في الشطر الثاني " إذ رحلت " الذي حدد المعنى وجل الموقف من خلال الوحدات المجاورة لها

وسعاد التي رحلت بعيدا عنه تمثل السعادة الحقيقية التي يريد نيلها والفوز بها، وهي عفوه –صلى الله عليه وسلم، ومن ثَمّ الدخول في حياة الإسلام الرحبة الواسعة التي يجد فيها الإنسان سعادته الحقيقية[1] اعتمد دور السياق في كشف المعنى على التسلسل المتسق للأبيات، حيث أكمل الشاعر وصف سعاد كأنها امرأة كما أوحى لنا بذلك فخلع فيها أوصفا تنم عن دلالات رمزية كشفها السياق، فهي هيفاء رشيقة جميلة سالبة للعقل وهي مقبلة عليك، وكذا الدنيا؛ لكنها عند الإدبار عجزاء، تحملك ما لا تطيق وما يعجز عنه كاهلك من الهموم، وهو أيضا وصف دقيق للدنيا، وقد حملت كلمة "عجزاء " معنى كثيفا دلّ على الثقل والعجز، فربط الشاعر بين متناقضين (هيفاء، عجزاء) بسياق لغوي أفاد معان في التقديم والتأخير والترتيب والتوالي أكسب البيت دلالات رمزية كشفت قدرة الشاعر الإبداعية ولم نكن نعلمها لو قرئت خارج هذا السياق؛ حيث تظن أن الوصف للأنثى وأن هيفاء تشير إلى رشاقتها وعجزاء الى الامتلاء وأن "مقبلة " تشير الى الاتجاه صوبك وأن "مدبرة " توليك الظهر، لكن السياق حمل دلالات كشفت عن توظيف تقني عال لكل كلمة، فسعاد بدلالة "الدنيا" جميلة ملهية وهي مقبلة عليك؛ لكنها أن أدبرت عنك أو، أولتك ظهرها فهي نكدة تثقلك بهموم تعجزك، وقد كان الشاعر حصيفا عندما تخير ألفاظا تلعب أدوارا مرنة تميل حيث يميل السياق فقوله " مدبرة " تحمل دلالة الانصراف وقرب الأجل، ثم دلالة

(١) المحاسنة، " الدكتور جاسر أبو صفية وقصيدة: بانت سعاد: دراسة نقدية" ص٣٧

العناد والمعاكسة معا؛ لأن اللهو بالدنيا والانشغال بها يحملك ذنوبًا حال غادرتها، تماما كما تحملك حال عنادها ومعاكستها.

وهذا ما حدث له عندما فارقته سعادة الدنيا بعد غضب النبي عليه وإهدار دمه " وهنا يلعب سياق الحال دورا في توظيف المعنى؛ حيث تعرض كعب لاستباحة دمه، فليس هناك ما يدعوه وهو يواجه موقفا يجعل النفس مضطربة الى وصف امرأة والتغزل بها، سيما الواقع يعيش تحولا في نمط الحياة ما ينصب الحياة أن تكون محورا أساسيا في قصيدته، فعلى سبيل المثال قوله:

"لا يُشتَكى قِصَرٌ مِنها وَلا طولُ" لعب السياق دورا بارزا في ربط هذا الوصف بالدنيا، محققا التماسك في النص، فلا يوجد من يعلم مدة الدنيا ليحدد قصرها أو طولها، وهذا الغموض الذي مصدره الجهل، أيد التفسير السياقي للبيت؛ حيث أكمل الشاعر الوصف، بما يجعل السياق متسقا يخدم بعضه بعضا، فهي جميلة مغيبة للعقل، إذا صفت لك، فكأن ما حولك ندى ورغد ورطب وبياض، يذهب عنك سواد وظلمة التعاسة إذ يقول

تَجلو عَوارِضَ ذي ظَلَمٍ إِذا اِبتَسَمَت كَأَنَّهُ مُنهَلٌ بِالراحِ مَعلولُ

وبين السياق دلالات الصورة في قوله " كَأَنَّهُ مُنهَلٌ بِالراحِ مَعلولُ " حيث شكل التوافق مع المقام، انسجامًا أبرز المعني، فالراح هو الخمر؛ لكن الشاعر لم يستخدم كلمة الخمر بل أتى بلفظة "الراح " لما فيها من الراحة والتؤدة حتى يكمل لك الصورة بدلالات لم يخب سهمها في كشف المعنى فابتسامتها تكشف عن منهل من الراح، فكأنك تسقى من صاف الراح، أعتقه فتسكرك، هكذا تكسبك الدنيا راحة إذا ابتسمت لك أي: صفت لك. وكشف السياق اللغوي عبر دلالة الألفاظ أن ذِكر الشاعر للراح، مقصود لهدفين، الأول، ما ذكرناه آنفا والثاني،

ليثبت أن ما كان عليه بمثابة السكر واللاوعي عن الحقيقة وهي صورة تناسب الاعتذار؛ حيث التبرير باللاوعي كأن وهما جماليا قد أغراه فعاش هياما أفقده الوعي.

الشاعر كغيره، يشكو تقلب الدنيا حيث لا تبقى على حال . وهذا ديدنها . وقد عبر السياق اللغوي عن ذلك في قوله: " سيطَ مِن دَمِها " فهي خليلة تصطحب الناس حال حياتهم، لكنها مجبولة على التبديل والإخلاف فلا تفي لك بما تتمنى وتحلم به، ما دفع الشاعر الى استخدام " يا " النداء مفيدا القرب والبعد معا بدلالات استهدفها الشاعر، وكشفها السياق، فلا أحد يدرك المنادى معرفة، أو نكره لغموض استدراك حاله، أي: لا أحد يدرك حقيقة سعاد " الدنيا " فهي لا تدوم على حال إذ يقول:

فَما تَدومُ عَلى حالٍ تَكونُ بِها كَما تَلَوَّنُ في أَثوابِها الغولُ

وهنا لعب السياق دورا في كشف ما ذهبنا إليه في مدول سعاد "الدنيا " حيث لا يحسن بشاعر مجود ككعب أن يتغزل بمتناقضات لا تحسن في موضع الغزل، فليس من المعقول أن يعقد الشاعر تشبيهًا بين المحبوبة والغول، يقول التبريزي في شرح هذا البيت " والعربُ تُسَمِّي كلَّ داهية غولا على التهويل "[1] وفي لسان العرب والغول في لسان العرب " غول: غَالَهُ الشَّيْءُ غَوْلًا وَاغْتَالَهُ: أَهْلَكَهُ وَأَخَذَهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ، مادة (غ.و.ل) "[2]، ولعلنا من السياق نستنتج أن الشاعر لم يقف على هذا المعنى، إنما وقف على ما اصطلح وعرف من " خطر الغول وشراسته في رأي الجاهليين"[3]، ولفظ ثيابها في السياق يشير إلى أن المقصود كائن صفته التغير والتبدل، وهو تشبيه لا يليق بمحبوبة، لكن الشاعر قارب بها المعنى من جهة واحدة وهو تلونها وتبدل مواقفها، مما حسن وجه تشبيهه للدنيا وأبعده عن باب الغزل. يقول ابن رشيق صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته؛

(١) التبريزي، يحي بن علي، شرح قصيدة كعب بن زهير بانت سعاد،(حلب، دار الملتقى، ٢٠٠٦)، ص ١٥
(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب،(القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٨م) ص٥٠٧)
(٣) علي، جواد،المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام،(بيروت، دار الساقي ٢٠٠١م)، ج١٢، ص ٣٠٤

لأنه لو ناسبه مناسبة كلية كان إياه [١] وأكمل الشاعر صورة تقلب الزمان بقوله

وَما تَمَسَّكُ بِالعهد الَّذي زَعَمَت　　إِلّا كَما تُمسِكُ الماءَ الغَرابيلُ

كَانَت مَواعيدُ عُرقوبٍ لَها مَثَلاً　　وَما مَواعيدُهـا إِلّا الأَباطيلُ

وقوله: "وَما تَمَسَّكُ بِالعهد الَّذي زَعَمَت"، تأكيد لما زعمه من التبديل والتغيّر، فهي لا تفي بالوصل، وأكمل الصورة حين شبهها بالغرابيل في دلالة زادت بيان الحال وشدة الإفراط، معلنا خلال السياق عجزه عن إدراك حالها وكان لاستخدام الجمع (غرابيل) وهو: جمع غربال، دلالة في زيادة التفريط وقد أبدع الشاعر في استخدم المقاربة بضرب المثل " مَواعيدُ عرقوب " والمقصود "عرقوب بن معبد "، رجل ضرب به المثل في الإخلاف"[٢] . وقوله: " وَما مَواعيدُها إِلّا الأَباطيلُ" أتي بمعنيين في مفردة واحد ففي "الأباطيل"، معنى للتعطيل والإخلاف معا

أَرجو وَآمُلُ أَن يَعجَلنَ في أَبَدٍ　　وَما لَهُنَّ طِوالَ الدَهرِ تَعجيلُ

الرجاء والأمل بابان من الطلب، قال البغدادي: وبعضهم فرق بينهما بأن الرجاء توقع حصول مطلوب في المستقبل مع خوف عدم وقوعه. والأمل: طلب حصول ما يغلب وقوعه في ظن الطالب لتعلقه به، وإن لم يقارنه خوف عدم الوقوع[٣] وما بين المأمول والرجاء، يعيش الشاعر حالة من الترقب أوقفت عنده الزمن رغم تشوقه وعجلته لعودة السعادة وهذه المرة سعادة أبدية؛ حيث قبول الاعتذار ثم العفو وما لهن تعجيل لما أحب " [٤]

فَلا يَغُرَّنَكَ ما مَنَّت وَما وَعَدَت　　إِنَّ الأَمانِيَ وَالأَحـلامَ تَضليلُ

(١) القيرواني، العمدة، ص ٢٨٦)

(٢) الزبيدي، الحافظ محمد مرتضى (١٤١٤هـ)، تاج العروس (بيروت، دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م)، ج٢، ص٢٢٦

(٣) البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ١٩٦٩م (ص٣٢٠)

(٤) التبريزي، شرح قصيدة كعب بن زهير بانت سعاد، ص ١٨

وما وصفت الدنيا قط، بوصف أكمل من هذا، ففي سياق مترابط بيّن الشاعر حقيقة سعاد" الدنيا " بحكمة حملت بين طياتها وصية عارف بل صادق ومتيقن بالحقيقة، وحملت كلمة "يغرّنك" دلالة أفادت كمال المعنى، وأدت دورها الوظيفي في إيصال المراد، بأن كل تصديق بدوام حال الدنيا، هو ضرب من الخدعة، وقد حشد الشاعر كل طاقات البيان في سياق متدافع؛ لتوصيل مبتغاه حيث يقول " إِنَّ الأَمانِيَ وَالأَحلامَ تَضليلُ" حتى صارت مثلا سائرا. ولما كان أكثر التمنّي عن تخمين؛ صار الكذب أغلب عليه، فأكثر التمنّي تصوُّرُ ما لا حقيقة له[1]، وهو ما دفع الشاعر لاستخدام كلمة " يغرّنك" التي أدت معناها ووظيفتها في السياق، أما استخدام التوكيد " بإن " ينم عن غاية مفادها أن ما أقوله حقيقة مسلم بها وقوله: " فالأماني والأحلام " حملا معنى قصيًا يدرك من خلال السياق، حيث كشفت عن ندمه وتحسره على ما فات، ودعم ذلك بخبر أعلنه في نهاية شطر البيت، وهو قوله: "تَضليلُ" أي مضللات، فجمع بين الإخبار والتوكيد وقدمهما كنتيجة مجرب وخبير، فأصاب المعنى وبين المراد، فكل الأماني والأحلام إما تضللك حال بلوغها ونيلها، أو أن تضل في طريقك إليها هكذا حشد الشاعر المعاني ووظفها لبلوغ غايته، منوعا في أدوات الاقناع كي يقبل عذره إذ يقول:.

أَمسَت سُعادُ بِأَرضٍ لا يُبَلِّغُها إِلّا العِتاقُ النَجيباتُ المَراسيلُ

فالدلالة الرمزية في قوله: (أمست سعاد) تبين دلالات مهمة كشفها السياق؛ حيث دلالة "أمست" على المساء أي غياب معالم الأشياء وطمسها، تماما كما غابت عنه السعادة المرتبطة بالهداية وها هو يتكبد المشاق ليصل إليها في محلها ومصدرها عند الرسول –صلى الله عليه وسلم– وهي صورة صاغها الشاعر بلمسة كنائية عالج فيها صورًة بصورةٍ؛ حيث وصف بعد الشقة المكانية باستخدام صورة أبرزت صفات

(١) الأصفهاني، ١٩٠٦م الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، (بيروت، دار الفكر، ط٢، ١٩٠٦م) ج١٧، ص٧٨٠

الوسيلة المستخدمة في الوصول الى المكان دون البوح بالبعد مباشرة، مما منح السياق دورا بارزا في بيان المعنى، وكان متطلبات الوسيلة أن يكنّ " العِتاقُ النَجيباتُ المراسيلُ"؛ حيث لا يستطيع ذلك غيرهن وعبر بالجمع للكثرة، ولم يفصل بينها بحرف عطف؛ لأنها صفات لموصوف واحد و(المراسيلُ) جَمْعُ مِرْسَالٍ، وهوَ مِفْعَالٌ منْ قولِهِم: ناقةٌ رَسْلَةٌ، إذا كانتْ سريعةَ وضعِ اليدَيْنِ في السيرِ، ومعناهُ أنَّ هذهِ الموصوفةَ صَارَتْ بأرضٍ بعيدةٍ لا يَبْلُغُها إلاَّ الإبِلُ التي هذهِ صِفَتُها[١]، وجاءت "يبلّغها" مشبعة بالتضعيف ليشير الى سمو الغاية، وهذه مسوغات لتقدير جهده وقبول عذره عند رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الذي أدرك هذه المعاني الجزلة والرمزية الناطقة بحسه النقدي فألقى عليه بردته ما أكسب القصيدة مكانة وزادها شرفا وسمة فعُرِفت "بالبُردة"

(١) (التبريزي، شرح قصيدة كعب بن زهير بانت سعاد، ص١٨)

خاتمة البحث

توصل البحث الى بعض النتائج التي بينت دور السياق بنوعيه في كشف الدلالة الرمزية في مقدمة البردة بدءً من مسمى سعاد وكما كشف عن قدرة الشاعر في توظيف اللغة والأساليب والصور، توظيفا منح السياق دورا بارزا في بيان المعنى، والكشف عن هوية المقدمة وبيان سبب اختيار هذا الاسم متوصلا إلى النتائج التالية:

١/ لعب السياق الخارجي دورًا بارزًا في كشف رمزية المقدمة ونفي أن تكون غزلية.

٢/ كشف سياق الموقف، ترابط ومنطقية التسلسل الدلالي للأبيات.

٣/ كان لسياق الحال دورا في بيان المقصود " بسعاد "

٤/ بين السياق اللغوي مبررات الشاعر في اختيار اسم " سعاد " بما يتميز به من ديناميكية تجعله قابلًا للتأويل وفق سياق الحال.

التوصيات

لا زالت مقدمة البردة تحمل العديد من الرؤى والدلالات ما يجعلها مادة خصبة للدراسة والبحث؛ سيما الظاهرة الصوتية والموسيقى ودلالاتهما.

المراجع

١/ ابن الأثير، أبي الفتح ضياء الدين (١٩٣٩ م) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: محمد محي الدين عبد الحميد ج٢، مصر، مطبعة مصفى البابي الحلبي.

٢/ الأصفهاني، أبو الفرج (د.ت)، الأغاني،(الطبعة الثانية) تحقيق سمير جابر ج١٧، بيروت، دار الفكر

٣/ البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٩٦٩م)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، بيروت، دار صادر.

٤/ التبريزي، يحي بن علي (٢٠٠٦) شرح قصيدة كعب بن زهير بانت سعاد، ت، فخر الدين قباوة، حلب، دار الملتقى.

٥/ ثعلب، أبي عباس أحمد بن يحيى، ١٩٦٠م، عبد السلام هارون، مصر، دار المعارف.

٦/ الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (١٩٠٦ م) المفردات في غريب القرآن، مصر، المطبعة الميمنية.

٧/ الرباعيّ، عبد القادر (١٩٧٨ م)،الصورة الفنّيّة في شعر أبي تمام، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر والتوزيع.

٨/ الزبيدي، الحافظ محمد مرتضى (١٤١٤هـ)، تاج العروس (الطبعة: الأولى)، ج ٢، بيروت، دار الفكر.

٩/ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (٢٠٠٢)، الأعلام، (ط ١٥)، دار العلم للملايين.

١٠/ زيدان، جرجي، (د.ت)، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، مصر: دار الهلال.

١١/ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (١٩٥٢م)، الصناعتين (الكتابة والشعر)، ط١، ت، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل أبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية

١٢/ علي، جواد (٢٠٠١م) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، ج١٢، دار الساقي

١٣/ ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (١٩٨٢م) الشِّعر والشعراء، ج١، ت، أحمد محمد شاكر، دار المعارف.

١٤/ القرطاجني،أبو الحسن حازم (١٩٨٦م)، مناهج البلغاء وسراج الأدباء، (ط٣) ت، محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت، دار الغرب الإسلامي

١٥/ القيرواني، ابن رشيق (١٩٨١م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت، محمد محي الدين عبد الحميد، ج١، بيروت، دار الجيل.

١٦/ المرزباني، أبى عبيد الله محمد بن عمران بن موسى (١٩٦٠م)، معجم الشعراء، ت، عبد الستار فراج، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية

١٧/ المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (١٩٩٥م)، الأمالي (ط١)، تحقيق يحي الجبوري، بيروت، دار الغرب الإسلامي .

١٨/ المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد (١٩٦٨م)، نفح الطيب من غصن أألندلس (ط١)، ج٢، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

١٩/ ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (١٩٩٨م) لسان العرب، القاهرة، دار المعارف

٢٠/ النيسابوري، الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد (١٩٩٠م)، المستدرك على الصحيحين (ط١) ت، مصطفى عبد القادر عطا، ج ٣، بيروت، دار الكتب العلمية.

الدراسات والأبحاث العلمية

١/ الديوب، سمر (٢٠٠٩م) "قراءة في لامية كعب بن زهير " مجلة مجمع اللغة العربية، مج ٨٤، ج٤، ص ١٠٥٩ - ١٠٨٦، دمشق.

٢/ الحوراني، محمد محمود ياسر(٢٠٢٠م)، "رمزية الذات والحياة في بردة كعب بن زهير"، مجلة آداب المستنصرية، مج٤٤،ج٢، ع٨٩، ص ٥١-٨٧، العراق

٣/ المحاسنة، علي أرشيد (٢٠٠٥م) " الدكتور جاسر أبو صفية وقصيدة: بانت سعاد: دراسة نقدية" مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية، مج ١٧، ع ٣٣، مكة المكرمة.

٤/ المطلبي، عبد الجبار، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، ع١٧ - ٢٠٠٠ .